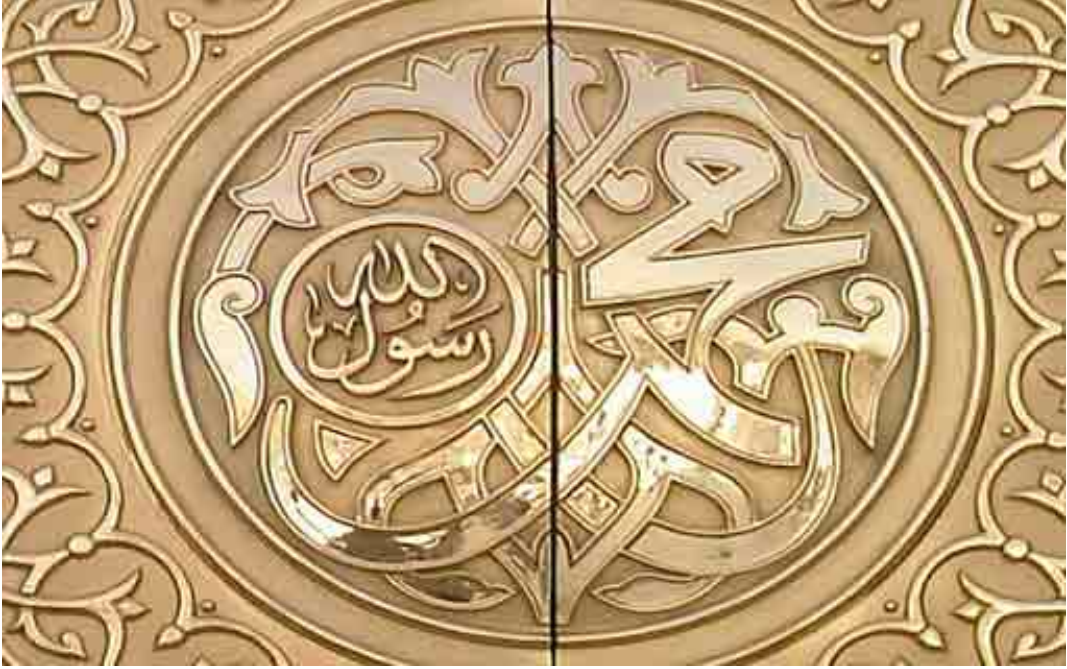


عصمة الأنبياء بين القرآن والفلسفة



إنَّ العصمة على ثلاثة أقسام: العصمة عن الخطأ في تلقي الوحي، والعصمة عن الخطأ في التبليغ والرسالة، والعصمة عن المعصية وهي ما فيه هتك حرمة العبودية ومخالفة مولوية، ويرجع بالآخرة إلى قول أو فعل يناه في العبودية منافاة ما، ونعني بالعصمة وجود أمر في الإنسان المعصوم يصونه عن الوقوع فيما لا يجوز من الخطأ أو المعصية.

وأما الخطأ في غير باب المعصية وتلقي الوحي والتبليغ، وبعبارة أخرى في غير باب أخذ الوحي وتبليغه والعمل به كالخطأ في الأمور الخارجية نظير الأغلاط الواقعة للإنسان في الحواس وادراكاتها أو الاعتباريات من العلوم، ونظير الخطأ في تشخيص الأمور التكوينية من حيث الصلاح والفساد والنفع والضرر ونحوها فالكلام فيها خارج عن هذا المبحث.

وكيف كان، فالقرآن يدل على عصمتهم (ع) في جميع الجهات الثلاث:

أما العصمة عن الخطأ في تلقي الوحي وتبليغ الرسالة: فيدل عليه قوله تعالى في الآية: (فَبَدَعَ بَدْعًا
اللَّهُمَّ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ
أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيِّنَةً فَهَدَى اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ (البقرة/213) فَإِنَّهُ ظَاهِر فِي أَنْ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا بَعَثَهُمُ بِالْبَشِيرِ وَالْإِنذَارِ وَإِنْ زَالَ الْكِتَابُ (وهذا هو الوحي) لَيَبِينُوا لِلنَّاسِ الْحَقَّ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالْحَقَّ فِي الْعَمَلِ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى لِهَدَايَةِ النَّاسِ إِلَى حَقِّ الْإِعْتِقَادِ وَحَقِّ الْعَمَلِ، وَهَذَا هُوَ غَرَضُهُ سُبْحَانَهُ فِي بَعَثِهِمْ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: (لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْدَسِي) (طه/52)، فَيَبِينُ أَنََّّهُ لَا يَضِلُّ فِي فِعْلِهِ وَلَا يَخْطِئُ فِي شَأْنِهِ، فَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَرِيدُهُ مِنْ طَرِيقِهِ الْمَوْصِلِ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ خَطَأٍ، وَإِذَا سَلَكَ بِفِعْلِهِ إِلَى غَايَةٍ فَلَا يَضِلُّ فِي سُلُوكِهِ، وَكَيْفَ لَا وَبِيَدِهِ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَلَهُ الْمُلْكُ وَالْحُكْمُ، وَقَدْ بَعَثَ الْأَنْبِيَاءَ بِالْوَحْيِ إِلَيْهِمْ وَتَفْهِيمَهُمْ مَعَارِفَ الدِّينِ وَلَا يَدَّ أَنْ يَكُونَ، وَبِالرَّسَالَةِ لِتَبْلِيغِهَا لِلنَّاسِ وَلَا يَدَّ أَنْ يَكُونَ! وَقَالَ تَعَالَى أَيْضًا: (إِنَّ اللَّهَ بِالْبَغْ أَمْرُهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق/3)، وَقَالَ أَيْضًا: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) (يوسف/21).

وَيَدُلُّ عَلَى الْعَصْمَةِ عَنِ الْخَطَأِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُطْهِرُ عَمَلِي غَيْبِيهِ أَحَدًا) * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) (الجن/26-28)، فَظَاهِرُهُ أَنََّّهُ سُبْحَانَهُ يَخْتَصُّ رُسُلَهُ بِالْوَحْيِ فَيُظْهِرُهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ عَلَى الْغَيْبِ بِمِرَاقِبَةٍ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَالْإِحَاطَةُ بِمَا لَدَيْهِمْ لِحِفْظِ الْوَحْيِ عَنِ الزَّوَالِ وَالتَّغْيِيرِ بِتَغْيِيرِ الشَّيَاطِينِ وَكُلِّ مُغْيِرٍ غَيْرِهِمْ، لِيَتَحَقَّقَ إِبْلَاغُهُمْ رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ مَلَائِكَةِ الْوَحْيِ: (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) (مريم/64)، دَلَّتِ الْآيَاتُ عَلَى أَنَّ الْوَحْيَ مِنْ حِينَ شُرُوعِهِ فِي النُّزُولِ إِلَى بُلُوغِهِ النَّبِيَّ إِلَى تَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ مُحْفُوظٌ مَصُونٌ عَنْ تَغْيِيرِ أَيْ مُغْيَرٍ يَغْيَرُهُ.

وهذان الوجهان من الاستدلال وإن كانا ناهضين على عصمة الأنبياء (ع) في تلقي الوحي وتبليغ الرسالة فقط دون العصمة عن المعصية في العمل على ما قررنا، لكن يمكن تكميم دلالتهما على العصمة من المعصية أَيْضًا بِأَنَّ الْفِعْلَ دَالٌ كَالْقَوْلِ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ، فَالْفَاعِلُ لِفِعْلٍ يَدُلُّ بِفِعْلِهِ عَلَى أَنََّّهُ يَرَاهُ حَسَنًا جَائِزًا كَمَا لَوْ قَالَ: إِنَّ الْفِعْلَ الْفُلَانِي حَسَنٌ جَائِزٌ فَلَوْ تَحَقَّقَتْ مَعْصِيَةٌ مِنَ النَّبِيِّ وَهُوَ يَأْمُرُ بِخِلَافِهَا لَكَانَ ذَلِكَ تَنَاقُضًا مِنْهُ، فَإِنْ فَعَلَهُ يَنَاقِضُ حِينَئِذٍ قَوْلَهُ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ مُبْلَغًا لِكُلِّ الْمُتَنَاقِضِينَ وَلَيْسَ تَبْلِيغُ الْمُتَنَاقِضِينَ بِتَبْلِيغٍ لِلْحَقِّ، فَإِنَّ الْمَخْبِرَ بِالْمُتَنَاقِضِينَ لَمْ يَخْبِرْ بِالْحَقِّ لِكَوْنِ كُلِّ مِنْهُمَا مُبْطَلًا لِلْآخِرِ، فَعَصْمَةُ النَّبِيِّ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ لَا تَتِمُّ لَا مَعَ عَصْمَتِهِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَصَوْنِهِ عَنِ الْمَخَالَفَةِ كَمَا لَا يَخْفَى.

وَيَدُلُّ عَلَى عَصْمَتِهِمْ مُطْلَقًا قَوْلُهُ تَعَالَى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ) (الأنعام/90)، فَجَمِيعُهُمْ (ع) كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْهُدَايَةُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ) (الزمر/36-37). وَقَالَ تَعَالَى: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ * فَهُوَ الْغَالِبُ عَلَى الْهَادِينَ) (الكهف/17)، فَنفى عن المهتدين بهدایتِهِ كُلِّ

مضل يؤثر فيهم بضلال، فلا يوجد فيهم ضلال، وكل معصية ضلال كما يشير إليه قوله تعالى: (أَلَمْ أَعْهَدْ لِّلَّذِينَ كُفِّرُوا بِنَدِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنَّ أَعْبُدُوا نَدِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا) (يس/62-60)، فقد كل معصية ضلالاً حاصلًا بإضلال الشيطان بعدما عدها عبادة للشيطان، فإنبات هدايته تعالى في حق الأنبياء (ع)، ثم نفى الضلال عن اهتدى بهداه، ثم عد كل معصية ضلالاً تبرئة منه تعالى لساحة أنبيائه عن صدور المعصية منهم وكذا عن وقوع الخطأ في فهمهم الوحي وإبلاغهم إياه.

ويدل عليها أيضاً قوله تعالى: (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا) (النساء/69)، وقال أيضاً: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) (الحمد/7)، فوصف هؤلاء الذين أنعم عليهم من النبيين بأنهم ليسوا بضالين، ولو صدر عنهم معصية لكانوا بذلك ضالين، وكذا لو صدر عنهم خطأ في الفهم أو التبليغ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى فيما يصف به الأنبياء: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوءُفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (مريم/58-59)، فجمع في الأنبياء أولاً الخصلتين: أعني الإنعام والهداية حيث أتى بمن البيانية في قوله وممن هدينا واجتبتينا بعد قوله: أنعم الله عليهم، ووصفهم بما فيه غاية التذلل في العبودية، ثم وصف الخلف بما وصف من أوصاف الذم، والفريق الثاني غير الأول لأنَّ الفريق الأول رجال ممدوحون مشكورون دون الثاني، وإذا وصف الفريق الثاني وعرفهم بأنهم اتبعوا الشهوات وسوف يلقون غيًّا فالفريق الأول وهم الأنبياء ما كانوا يتبعون الشهوات ولا يلحقهم غي، ومن البديهي أنَّ مَنْ كان هذا شأنه لم يجز صدور المعصية عنه حتى أنهم لو كانوا قبل نبوتهم ممن يتبع الشهوات لكانوا بذلك ممن يلحقهم الغي لمكان الإطلاق في قوله: (أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوءُفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (مريم/59).

وهذا الوجه قريب من قول مَنْ استدل على عصمة الأنبياء من طريق العقل بأنَّ إرسال الرسل وإجراء المعجزات على أيديهم تصديق لقولهم، فلا يصدر عنهم كذب وكذا تصديق لأهليتهم للتبليغ، والعقل لا يعد إنساناً يصدر منه المعاصي والأفعال المنافية لمرام ومقصد كيف كان أهلاً للدعوة إلى ذلك المرام، فإجراء المعجزات على أيديهم يتضمن تصديق عدم خطأهم في تلقي الوحي وفي تبليغ الرسالة وفي امثالهم للتكاليف المتوجهة إليهم بالطاعة.

ولا يرد عليه: أنَّ الناس وهم عقلاء يتسببون في أنواع تبليغاتهم وأقسام أغراضهم الاجتماعية بالتبليغ

ممن لا يخلو عن بعض القصور والتقصير في التبليغ، فإنَّ ذلك منهم لأحد أمرين لا يجوز فيما نحن فيه، إما لمكان المسامحة منهم في اليسير من القصور والتقصير وإما لأنَّ مقصودهم هو البلوغ إلى ما تيسر من الأمر المطلوب، والقبض على اليسير والغض عن الكثير وشيء من الأمرين لا يليق بساحته تعالى.

ولا يرد عليه أيضاً: ظاهر قوله تعالى: (فَلَا وَلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَلَفَّفُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة/122)، فإنَّ الآية وإن كانت في حق العامة من المسلمين ممن ليس بمعصوم لكنه أذن لهم في تبليغ ما تعلموا من الدين وتفقهوا فيه، لا تصديق لهم فيما أنذروا به وجعل حجة لقولهم على الناس والمحذور إنما هو في الثاني دون الأول.

ومما يدل على عصمتهم (ع) قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) (النساء/64)، حيث جعل كون الرسول مطاعاً غاية للإرسال، وقصر الغاية فيه، وذلك يستدعي بالملازمة البينة تعلق إرادته تعالى بكل ما يطاع فيه الرسول وهو قوله أو فعله لأنَّ كلاهما وسيلة معمولية متداولة في التبليغ، فلو تحقق من الرسول خطأ في فهم الوحي أو في التبليغ كان ذلك إرادة منه تعالى للباطل وإلا سبحانه لا يريد إلا الحق.

وكذا لو صدر عن الرسول معصية قولاً أو فعلاً والمعصية مبعوضة منهي عنها لكان بعينه متعلق بإرادته تعالى فيكون بعينه طاعة محبوبة فيكون تعالى مريداً غير مريد، آمراً وناهياً، محباً ومبغضاً بالنسبة إلى فعل واحد بعينه تعالى عن تناقض الصفات والأفعال علواً كبيراً وهو باطل وإن قلنا بجواز تكليف ما لا يطاق على ما قال به بعضهم، فإنَّ تكليف ما لا يطاق تكليف بالمحال وما نحن فيه تكليف نفسه محال، لأنَّه تكليف ولا تكليف، وإرادة ولا إرادة، وحب ولا حب، ومدح وذم بالنسبة إلى فعل واحد! ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) (النساء/164)، فإنَّ الآية ظاهرة في أنَّ إله سبحانه يريد قطع عذر الناس في ما فيه المخالفة والمعصية وأن لا قاطع للعذر إلى الرسل (ع)، ومن المعلوم أنَّ قطع الرسل عذر الناس ورفعهم لحجتهم إنما يصح إذا لم يتحقق في ناحيتهم ما لا يوافق إرادة إله ورضاه: من قول أو فعل، وخطأ أو معصية، وإلا كان للناس أن يتمسكوا به ويحتجوا على ربهم سبحانه وهو نقض لغرضه تعالى.

فإن قلت: الذي يدل عليه ما مرَّ من الآيات الكريمة هو أنَّ الأنبياء (ع) لا يقع منهم خطأ ولا يصدر عنهم معصية وليس ذلك من العصمة في شيء، فإنَّ العصمة على ما ذكره القوم قوة تمنع الإنسان عن الوقوع في الخطأ، وتردعه عن فعل المعصية واقتراف الخطيئة، وليست القوة مجرد صدور الفعل أو عدم صدوره وإنما هي مبدأ نفساني تصدر عنه الفعل كما تصدر الأفعال عن الملكات النفسانية.

قلت: نعم لكن الذي يحتاج إليه في الأبحاث السابقة هو عدم تحقق الخطأ والمعصية من النبي (ص) ولا يضر في ذلك عدم ثبوت قوة تصدر عنها الفعل صواباً أو طاعة وهو ظاهر.

ومع ذلك يمكن الاستدلال على كون العصمة مستندة إلى قوة رادعة بما مرّ في البحث عن الإعجاز من دلالة قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ بِأَلْعُ أَمْرِهِ قَدْرٌ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق/3)، وكذا قوله تعالى: (إِنَّ رَبِّيَ عَلَيَّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (هود/56)، على أن كلاً من الحوادث يحتاج إلى مبدأ يصدر عنه وسبب يتحقق به، فهذه الأفعال الصادرة عن النبي (ص) على وتيرة واحدة صواباً وطاعة تنتهي إلى سبب مع النبي (ص) وفي نفسه وهي القوة الرادعة، وتوضيحه: أن أفعال النبي المفروض صدورها طاعة أفعال اختيارية من نوع الأفعال الاختيارية الصادرة عنا التي بعضها طاعة وبعضها معصية، ولا شك أن الفعل الاختياري إنما هو اختياري بصدوره عن العلم والمشئنة، وإنما يختلف الفعل طاعة ومعصية باختلاف الصورة العلمية التي يصدر عنها، فإن كان المقصود هو الجري على العبودية بامثال الأمر مثلاً تحققت الطاعة، وإن كان المطلوب - أعني الصورة العلمية التي يضاف إليها المشئنة - اتباع الهوى واقتراف ما يصدر عنه الفعل، ولو دام أحد العلمين أعني الحكم بوجوب الجري على العبودية وامثال الأمر الإلهي لما صدر إلا الطاعة، ولو دام العلم الآخر الصادر عنه المعصية (والعياذ بالله) لم يتحقق إلا المعصية، وعلى هذا فصدور الأفعال عن النبي (ص) بوصف الطاعة دائماً ليس إلا لأن العلم الذي يصدر عنه فعل بالمشئنة صورة علمية صالحة غير متغيرة، وهو الإذعان بوجوب العبودية دائماً، ومن المعلوم أن الصورة العلمية والهيئة النفسانية الراسخة غير الزائلة هي الملكة النفسانية كملكة العفة والشجاعة والعدالة ونحوها، ففي النبي ملكة نفسانية يصدر عنها أفعاله على الطاعة والانقياد وهي القوة الرادعة عن المعصية.

ومن جهة أخرى النبي لا يخطئ في تلقي الوحي ولا في تبليغ الرسالة ففيه هيئة نفسانية لا تخطئ في تلقي المعارف وتبليغها ولا تعصي في العمل ولو فرضنا أن هذه الأفعال وهي على وتيرة واحدة ليس فيها إلا الصواب والطاعة تحققت منه من غير توسط سبب من الأسباب يكون معه، ولا انضمام من شيء إلى نفس النبي كان معنى ذلك أن تصدر أفعاله الاختيارية على تلك الصفة بإرادة من الله سبحانه من غير دخالة للنبي (ص) فيه، ولازم ذلك إبطال علم النبي (ص) وإرادته في تأثيرها في أفعاله وفي ذلك خروج الأفعال الاختيارية عن كونها اختيارية، وهو يناقض افتراض كونه فرداً من أفراد الإنسان الفاعل بالعلم والإرادة، فالعصمة من الله سبحانه إنما هي بإيجاد سبب في الإنسان النبي يصدر عنه أفعاله الاختيارية صواباً وطاعة وهو نوع من العلم الراسخ وهو الملكة.

المصدر: كتاب الميزان في تفسير القرآن